

نشأة الدرس النحوي العربي وأسبابها

الحسين مصطفى أبو عجيبة - جامعة مصر اتمة - ليبيا
h.abujaila@edu.misuratau.edu.ly

مُلخَص:

جعل الله القرآن عربياً فأصبحت اللغة العربية وسيلة من وسائل العبادة والتشريع، ثم السبيل إلى المعارف الإنسانية، والحضارة والمدنية. وقد تعرّضت العربية إلى ظاهرة اللحن، فنظر إليها أبناءها الأعلام من مختلف الزوايا، فكانت تلك النظرات البدايات لنشأة الدرس النحوي. وكانت البداية في البصرة، ثم لحقت الكوفة بالركب، واتصل النحو الكوفي بالنحو البصري اتصالاً قوياً، واستفاد منه كثيراً، ثم كان لهما الفضل في تطوير النحو بسبب ما كان بين المدرستين من تنافس. وقد كانت هناك عدّة عوامل أدت إلى نشوء الدرس النحوي، أهمها: العامل الديني، والعامل القومي، والعامل الثقافي.

مقدمة:

العناية باللغة العربية والاهتمام بها كانت له بدايات منذ نزول القرآن الكريم، ذلك أنّ اللغة العربية أصبحت بنزول القرآن "وسيلة من وسائل العبادة والتشريع، وسبيلاً يُفضي إلى العلم بالدين... وكانت العناية الأولى باللغة استجابة إلى ما توجبه المحافظة على القرآن الكريم وتفهم معانيه من حفظ مادته اللغوية وما ترمي إليه من دقيق الدلالة والمغزى، وصحيح المبني والمعنى"¹ ثم تطور الأمر فأصبحت "سبيلاً إلى المعارف الإنسانية كلها، ومظهراً من مظاهر الحضارة والمدنية وترف العقل والإحساس، وأداة للتعبير عن تجارب الشعور والخواطر والآراء"². وليس من شك في أنّ عمليّتي التأثير والتأثر عمليتان قديمتان في علاقة اللغات بعضها ببعض³، وقد تأثرت العربية بغيرها من اللغات، فبعد أن دخل الناس من مختلف

¹ عطار (أحمد عبد الغفور)؛ الصحاح ومدارس المعجمات العربية، ط 4، مكة المكرمة، 1990م، ص 48.

² المصدر السابق.

³ ينظر: حسّان (تمام)؛ اللغة بين المعيارية والوصفية، مطبعة دار النجاح الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1980م، ص 73.

الأمم «في دين الله أفواجا»⁴. ووقع احتكاك العرب بالأعاجم واندمجت الأمم في أمة واحدة، تعرّضت اللغة العربية إلى ظاهرة خطيرة هي تسرّب اللحن إلى اللسان العربي، لكن أبناءها تفتّنوا إلى هذا الخطر، واحتاطوا للغة منه، وقد كان من حسن حظ اللغة العربية "أن ينظر إليها أبناؤها الأعلام من مختلف الزوايا، ويتناولوها من جميع الوجوه التي تُتناول منها لغة حيّة ذات مقام كريم في الحياة"⁵.

وما من شك في أن الدرس النحوي (بالمفهوم القديم؛ أي كما هو في كتاب سيبويه؛ أي علم العربية) قد شهد تطوراً عظيماً في مسيرته التي بدأت منذ عهد الصحابة، منذ أن أصبح وجود هذا الدرس ضرورة ملحة فرضها الواقع العربي ما بعد الإسلام. وبناء على ذلك فقد جاء هذا البحث في مقدمة هي هذه، ومبحثين:

المبحث الأول: تحدثت فيه عن كيفية نشأة الدرس النحوي. والثاني: جعلته لمناقشة الأسباب والعوامل التي أدت إلى ظهور الدرس النحوي. ثمّ ذيلت البحث بخاتمة ضمّنتها أهم نتائج البحث. ولعلّ أهميّة هذه الدراسة تبرز في أمور من أهمها:

- إبراز أهمية العربية في فهم النصوص الإسلامية المقدّسة (القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف).
- الإشارة إلى ذنبك الجهد والجهد العظيمين الذين بدلها الأوائل لتبقى هذه اللغة محفوظة أبد الدهر.
- إمكانيات اللغة العربية الكبيرة؛ فقد أثبتت قدرتها على استيعاب كل العلوم ومختلف الثقافات. والتاريخ يشهد أنها كانت لغة العلم والحضارة والمدنية، ولا زالت تمتلك مرونة واسعة لاستقبال أي جديد.
- الاعتراف بفضل اللغة العربية على العرب؛ فهي المحافظة على الهوية والقومية العربية.

المبحث الأول: كيف نشأ الدرس النحوي العربي (البصري والكوفي):

الأسبق نشوءاً:

كانت نشأة النحو العربي في البصرة في عهد علي رضي الله عنه، وبإشارة منه، أو في عهده عن طريق أبي الأسود الدؤلي (ت 69هـ)، حسب اختلاف الروايات في ذلك، يقول ابن النديم: "زعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبي الأسود الدؤلي وأن أبا الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب"⁶.

⁴ الآية 2 النصر.

⁵ عطار (أحمد عبد الغفور)؛ الصحاح ومدارس المعجمات العربية، ص 49.

⁶ الفهرست، ابن النديم، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ص 59، 60. وينظر: ابن الأنباري؛ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي،

وكما قال أحد الباحثين: "هذا الجزم الذي انتهى إلى ابن خلدون المتوفى سنة 808هـ وإلى من بعده، هو ما طبقت عليه المراجع العربية، مع بعض الاختلاف في بعض التفاصيل"⁷. وكانت نشأته في الكوفة على يد أبي جعفر الرواسي (170هـ أو 187هـ) الذي كان معاصراً للخليل بن أحمد (ت 170هـ أو 175هـ). وبذلك يظهر جلياً تأخر ظهور الدرس النحوي في الكوفة عن ظهوره في البصرة؛ ولعلّ السبب في هذا التأخر يرجع إلى انشغال أهل الكوفة بعلوم القراءات والفقه والحديث؛ لكثرة من كان فيها من الصحابة والتابعين والفقهاء، يقول أحد الباحثين: "أهل الكوفة أصحاب فقه وحديث وقراءة، وأهل البصرة أصحاب علوم وفلسفات؛ لأنهم أكثر اختلاطاً من أهل الكوفة، وأكثر حرية في اعتناق المذاهب المختلفة، وأسرع إلى الأخذ من الثقافات الأجنبية؛ لتوافر مصادرها عندهم وكثرة انتقالاتهم للكسب والتجارة"⁸.

بالنظر إلى تاريخ وفاة مؤسس النحو في البصرة، وتاريخ وفاة مؤسس النحو في الكوفة نجد الفرق بينهما مائة عام تقريباً، وهنا يخطر بالبال سؤال مفاده: تأخرت نشأة النحو في الكوفة عن نشأته في البصرة مائة عام تقريباً؟ أم أنّه نشأ في الكوفة قبل ذلك لكنه لم يتمكن من منافسة النحو البصري إلا بعد مائة عام؟ اختلف الباحثون حول هذه المسألة، ذهب بعضهم⁹ إلى أنّ نشأة النحو في الكوفة، كانت بعد تطور المدرسة البصرية ووصولها إلى القمة في هذا المجال، ثمّ بعد ذلك دخلت الكوفة في هذا الميدان، بعد أن كانت قبل ذلك منشغلة عن الدراسات النحوية بالقرآن الكريم وقراءاته، والفقه، ورواية الأشعار والأخبار¹⁰، يقول أحد الباحثين: "نرجح أنّ التنافس بين نحاة البصرة والكوفة لا وجود له في عهد الخليل وأبي جعفر"¹¹، فالباحث هنا يُشير إلى أنّ النحو الكوفي نشأ في عهد الرواسي؛ والناشئ لا يستطيع منافسة المتمكّن.

القاهرة، [د ت]، ص 14. والفقطي (أبو الحسن علي بن يوسف)؛ إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 1، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1950م، 1 / 4. والأزهري (خالد بن عبد الله)؛ شرح التصريح على التوضيح، دار إحياء الكتب العربية، 1 / 4. رفيده (إبراهيم عبد الله)؛ النحو وكتب التفسير، ط 3، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، 1990م، 1 / 44.⁸ المخزومي (مهدي)؛ مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ط 3، دار الرائد العربي، بيروت، 1986م، ص 66.⁹ المصدر السابق.¹⁰ ينظر: الراجحي (عبد)؛ دروس في المذاهب النحوية، ط 2، دار النهضة العربية، بيروت، 1988م، ص 89.¹¹ المخزومي؛ مدرسة الكوفة، ص 66.

ويُشير آخر إلى أنَّ نشأة النحو الكوفي سبقت الرُّواصي، وذلك عندما قال: "أنشأ الرُّواصي مدرسة الكوفة في النحو، ووضع فيه كتابًا لم يصل إلينا، وقالوا: إنَّ الخليل اطلَّع عليه، وانتفع به، وبدأت من ذلك الحين مدرسة الكوفة تناظر مدرسة البصرة، بدأ الخلاف هادئًا بين الرُّواصي في الكوفة، والخليل في البصرة، ثمَّ اشتدَّ بين الكسائي في الكوفة، وسيبويه في البصرة"¹²، فقله: "أنشأ الرُّواصي مدرسة الكوفة" يقصد به المدرسة التي امتلكت مقومات وإمكانات التنافس العلمي، ولا يقصد بالنشأة هنا: بدايات الدرس النحوي، بدليل قوله بعد ذلك: "وبدأت من ذلك الحين مدرسة الكوفة تناظر مدرسة البصرة"، والمبتدئ لا يمكن عقلاً أن ينافس أو يناظر المتمكن، كذلك يقول باحث آخر: "والبصرة -كما قلنا- هي التي سبقت إلى وضع النحو، لكنَّ الكوفة ما لبثت أن دخلت ميدانه"¹³، ففي قوله "ما لبثت": دلالة على السرعة وعدم البطء. ويبدو لي أنَّ هذا الرأي هو الأقرب إلى طبيعة الأشياء؛ ذلك أنَّ الرُّواصي -حسب ما تذكر كتب التراجم- كانت له مصنفات وآراء خالف فيها الخليل في النحو، بل وأكثر من ذلك عندما نجد بعض كتب التراجم تروي أنَّ الخليل طلب من الرُّواصي أن يبعث له كتابه الفيصل، روى الصَّفدي أنَّ الرُّواصي قال: "بعث الخليل إليَّ يطلب كتابي، فبعثتُ به إليه، فقرأه، فكل ما في كتاب سيبويه: (وقال الكوفي كذا)، فإنما عني به الرُّواصي هذا، وكتابه يقال له الفيصل"¹⁴، ويروي أيضًا أن ابن دَرَسْتَوَيْه قال: "زعم جماعة من البصريين أنَّ الكوفي الذي يذكره الأخفش في آخر كتاب المسائل ويرُدُّ عليه، هو الرُّواصي"¹⁵. فإنَّ صحَّت تلك الروايات، تكون دليلًا على وجود التنافس بين الفريقين منذ أيام الخليل والرُّواصي، والتنافس عادة لا يكون بين متمكّن وناشئ، وهذا يدل على أنَّ نشأة النحو الكوفي كانت قبل الرُّواصي. وإذا كان بعض الباحثين قد أبدى استغرابه من ظهور كتاب ضخم في النحو على يد سيبويه، دون وجود "نواة تُبيِّن ما هو سنةٌ طبيعيةٌ من نشوء وارتقاء"¹⁶ فنرى أنَّ القول ببداية النحو الكوفي على يد الرُّواصي، وأنه في الوقت ذاته كان ينافس الخليل أشدَّ استغرابًا.

¹² أمين (أحمد)؛ ضحى الإسلام، ط 8، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1974م، 2 / 294.

¹³ الراجحي؛ دروس في المذاهب النحوية، ص 89.

¹⁴ الصَّفدي (صلاح الدين خليل بن ابيك)؛ الوافي بالوفيات، اعتناء: س. ديدرينغ، ط 2، دار النشر فرانز شتايز بفيسدان، 1981م، 2 / 335. وينظر: السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)؛ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، [دب] 1 / 82، 83. والزركلي (خير الدين)؛ الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط 3، بيروت، 1969م، 7 / 154.

¹⁵ الصَّفدي؛ الوافي بالوفيات، 2 / 335. وينظر: السيوطي؛ بغية الوعاة، 1 / 83.

¹⁶ أمين (أحمد)؛ ضحى الإسلام، 2 / 285.

استفادة النحو الكوفي من النحو البصري:

ما من شك في أنّ النحو الكوفي قد اتصل بالنحو البصري اتصالاً قوياً، واستفاد النحو الكوفي كثيراً من النحو البصري الذي كان ينبوعاً عظيماً مدّ النحو الكوفي بأسباب الحياة النحوية¹⁷، تتلمذ أبو جعفر الرؤاسي، على أساتذة بصريين كأبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر النخعي¹⁸ و"بعد أن نبغ في هذه الدراسات النحوية ذهب إلى الكوفة ليذيع فيها علم البصرة"¹⁹، كذلك الكسائي كان "عميد مدرسة الكوفة خرج إلى البصرة فلقى الخليل، وجلس في حلقته"²⁰، والفراء أيضاً أخذ عن الرؤاسي والكسائي في الكوفة، ثم حدا حدو أسلافه، فأخذ عن يونس بن حبيب من البصرة، وغيرهم من الشيوخ والعلماء البارزين في ذلك العصر من الكوفة والبصرة وبغداد ومكة وغير ذلك²¹. هذا الاتصال القوي ساعد نحاة الكوفة على أن يقفروا قفزة كبيرة في هذا المجال، وأن يلحقوا بهذا الركب، حتى أصبح "لا تُذكَرُ البصرة إلا وتُذكَرُ معها الكوفة"²²، وبذلك أصبح لهما الفضل في تطوير النحو، ذلك أنّ من أهم أسباب تطوير النحو وازدهاره "يرجع إلى ما كان بين المدرستين من تنافس شديد ارتفع إلى درجة الخلاف حول كثير من ظواهر العربية"²³. وذاعت شهرة الدراسات اللغوية في البصرة والكوفة، وذاعت شهرة نحاة الكوفة كما ذاعت شهرة نحاة البصرة من قبلهم، وأصبح علماء المصرين مقصد طلاب العلم، حتى قصدهم طلاب من أقصى غرب الدولة الإسلامية، ومن ذلك مثلاً: ما تذكره بعض كتب التاريخ والتراجم من أنّ أوّل كتاب نحو دخل إلى بلاد الأندلس، كان كتاب الكسائي، وكان ذلك على يد جودي بن عثمان²⁴، وبذلك يكون النحو الكوفي قد سبق النحو البصري إلى الأندلس²⁵.

¹⁷ ينظر: مكرم (عبدالعال)؛ القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، دار المعارف بمصر، 1968م، ص121، والراجحي (د. عبده)؛ دروس في المذاهب النحوية، ص89.

¹⁸ ينظر: المخزومي؛ مدرسة الكوفة، ص67.

¹⁹ مكرم؛ القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، ص122.

²⁰ المصدر السابق.

²¹ ينظر: ديرة (المختار أحمد)؛ دراسة في النحو الكوفي من خلال معاني القرآن للفراء، ط1، دار قتيبية، بيروت، 1991م، ص69، 70.

²² الراجحي؛ دروس في المذاهب النحوية، ص89.

²³ المصدر السابق.

²⁴ ينظر: الزبيدي؛ طبقات النحويين واللغويين، ص279 بتصرف، نقلاً عن: الهيتي (عبد القادر)؛ خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري، ط2، منشورات جامعة

قاريونس، بنغازي، 1993م، ص36.

²⁵ ينظر: الهيتي؛ خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري، ص37.

أهم الفروق بين مسلك الكوفيين ومسلك البصريين:

بعد أن أصبح للعلماء الكوفيين أسلوبهم الخاص، الذي كَوَّنوه بعد طول نظر وبحث وجد واجتهاد في أساليب القرآن وأشعار العرب، وقع بعض الاختلاف بين المدرستين في المسلك، الأمر الذي نتج عنه اختلافهم في الأصول والمرجعيات، فترتَّب على ذلك اختلافات كثيرة بينهما في الفروع²⁶، ويتجلى الفرق في المسلك بين البصرة والكوفة في أمور لعلَّ من أهمها ما يلي:

● الحرص والاهتمام بالتوثيق والتععيد، والعناية بالإسناد، عند البصريين أكثر وأقوى ممَّا هو عند الكوفيين²⁷.

● إذا وجد البصريون لعنَّين: لغة توافق القياس، وأخرى لا توافقه، يُفَضِّلُونَ التي تُوافق القياس، ويُقَلِّلُونَ مِن قيمة الأخرى التي لا تُوافق القياس. كما كانوا يُلْزِمُونَ الناس اتِّباع الأكثر الأغلب، وكان هدفهم من ذلك هو تنظيم اللغة ولو أدَّى ذلك إلى تَرْك بعضها²⁸.
وأيضاً، فالأمثلة في النحو البصري يجب أن تلائم الأصول الموضوعية فإذا اصطدم شيء منها بأصل من تلك الأصول استخدموا التَّأويل، ولو كان فيه بعض التكلُّف، فإن لم يخضع النص للتأويل وصفوه بالشذوذ أو بالندرة وبالخطأ أحياناً. أما الكوفيون فقد أخذوا كلَّ ما جاء عن العرب، وأجازوا للناس أن يستعملوا استعمالهم، ولو كان ذلك الاستعمال مخالفاً للقواعد العامة، وعمَّوا الظاهرة الفردية، وقاسوا عليها²⁹، حيث جرَّت عادتهم أنهم متى ما سمعوا مِن أعراب يثقون في فصاحتهم- لفظاً في شعر جعلوه باباً أو فصلاً³⁰، وأعادوا النظر في الأصول التي سبق وأن أصلَّوها، وغيَّروا القواعد التي سبق وأن استنبطوها من تلك الأصول إذا رأوا أنها تتعارض معها؛ لتوافق تلك الأمثلة المُستعملة المسموعة عن العرب، فليست تلك الأصول والقواعد خطأ أحمر عندهم³¹.

²⁶ ينظر: أمين؛ ضحى الإسلام، ص297. والطنطاوي (محمد)؛ نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، تع: عبد العظيم الشناوي، ومحمد الكردي، ط1، 1968م، ص133.

²⁷ ينظر: الشلقاني (عبد الحميد)؛ مصادر اللغة، ط1، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، 1977م، ص396. وخليف (يوسف)؛ حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1968م، ص274. وأمين؛ ضحى الإسلام، ص296.

²⁸ ينظر: أمين؛ ضحى الإسلام، ص295.

²⁹ ينظر: المخزومي؛ مدرسة الكوفة، ص376، 377.

³⁰ ينظر: السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)؛ هَمَع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح عبد السلام هارون. وعبد العال مكرم، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1987م، ص53. وينظر: السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)؛ كتاب الاقتراح في علم أصول النحو، قدم له وضبطه وصححه وشرحه وعلق حواشيه وفهرسه: أحمد سليم الحمصي، ومحمد أحمد قاسم، ط1، 1988م، ص129.

³¹ ينظر: المخزومي؛ مدرسة الكوفة، ص378، 379.

ولعلَّ فعل الكوفيين هذا هو ما ينادي به بعض المحدثين³²، يقول أحد الباحثين: "وفي العصور المتأخرة أخذ النحاة يعتمدون كلام القدماء من نحاة الكوفة"³³ أي: أنَّ الحداثيين في اللغة لهم أصول قديمة يرجع عهدها إلى علماء الكوفة الأوائل.

• كان نحاة البصرة يمتازون بالدقة والحرص الشديد واستخدام قوانين العقل وأصول المنطق في وضع القوانين والقواعد النحوية. أمَّا نحاة الكوفة فكانوا يمتازون بفهم العربية فهمًا لم يكن الاعتماد الأكبر فيه قائمًا على الاستهداء بقوانين العقل، وأصول المنطق، بل كان فهمًا قائمًا على تذوق اللغة، وكانوا حريصين على أن تبقى اللغة على طبيعتها وعفويتها³⁴.

موقف الباحثين من مسلك الفريقيين:

أثنى بعض الباحثين على مسلك البصريين، وأثنى آخرون على مسلك الكوفيين، فممن أثنى على مسلك البصريين: أحمد أمين، عندما قال: "إنَّ البصريين كانوا أكثر حريةً، وأقوى عقلًا، وأنَّ طريقتهم أكثر تنظيمًا، وأقوى سلطانًا على اللغة، وأنَّ الكوفيين أقلَّ حريةً، وأشدَّ احترامًا لِمَا وردَ عن العرب، ولو موضوعًا. فالبصريون يريدون أن يُنشئوا لغةً يسودها النظام والمنطق، ويُميئوا كلَّ أسباب الفوضى من روايةٍ ضعيفةٍ أو موضوعيةٍ، أو قولٍ لا يتمشى مع المنطق"³⁵، ويقول أيضًا: "وكان البصريون أكثر اعتدادًا بأنفسهم، وأكثر شعورًا بثقة ما يروون، وأشدَّ ارتياحًا فيما يرويه الكوفيون؛ لذلك كان الكوفي يأخذ عن البصري، ولكنَّ البصري يتحرَّج أن يأخذ عن الكوفي"³⁶.

وممن أثنى على مسلك الكوفيين: مهدي المخزومي الذي يقول: "الكوفيون على جانب من الحق في اعتدادهم بالمثل الواحد؛ لأن ما كان في نظر البصريين شاذًا، خارجًا عن الأصول، إنما يمثل لهجة بعينها، ينبغي أن يُحسب حسابها"³⁷ ويقول أيضًا: "المثال الواحد الذي يسمعه النحوي من أعرابي أو أعرابية ينبغي أن يُنظر إليه على أنه يمثل لهجة لغوية، تحتل مكانها بين البيئات اللغوية المختلفة، التي

³² ينظر: المصدر السابق، ص 381.

³³ الطواني (محمود خير)؛ الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين وكتاب الإنصاف، دار

القلم العربي ببلب، [د.ت.]، ص 310.

³⁴ ينظر: المخزومي؛ مدرسة الكوفة، ص 351، و 376 وما بعدها.

³⁵ أمين؛ ضحى الإسلام، 2 / 296.

³⁶ المصدر السابق، 2 / 297.

³⁷ المخزومي؛ مدرسة الكوفة، ص 378.

احتوتها البيئة العربية الواسعة، فأهدارها إهدار لهذه البيئة، ومضيعة لجانب لغوي، لا تتم الدراسة إلا بالإحاطة به³⁸. ويذهب المخزومي إلى أبعد من ذلك فيتهم النحو البصري بأنه ضيِّع الكثير من مزايا اللغة العربية، وأمات ما في اللغة من حيوية، ورماها بالجدب والجمود، وأنَّ الكوفيين أجدى على العربية من البصريين، وأنَّ ما ذهب إليه الكوفيون هو الأقرب إلى واقع اللغة³⁹. ويقول باحث آخر: "القبائل العربية تتساوى في صحة القول وسلامة اللغة، وليس أمام العقل مسوِّغ في تفضيل لهجة على لهجة"⁴⁰؛ ذلك أنَّ "من القواعد المقررة في فقه اللغة: أنه لا يحتج بلغة قبيلة على أختها، ولا يحكم النظر بالتخلف على نظيره. ومن يدرينا أنَّ الظاهرة اللغوية التي روى لها الكوفيون شاهداً واحداً ليس لها شواهد أخرى؟"⁴¹، ويقول آخر في هذا الشأن أيضاً: "إنَّ المذهب الكوفي في نظرنا أقرب إلى الواقع حين أجاز القياس على المثال الواحد المسموع، ولم يعتبر القلة والكثرة؛ وذلك لأنَّ القبائل العربية تتساوى في صحة القول، وسلامة اللغة"⁴²؛ ويضيف: "ونزعم أنهم كانوا يعتدُّون بالشاهد الواحد حينما لا يجدون غيره"⁴³؛ لأننا كما يقول إبراهيم أنيس: "لا نستطيع أن نتصوَّر أنهم كانوا من الغفلة بحيث يسوون بين الظاهرة التي ورد لها أمثلة كثيرة، وبين تلك التي لم يرد لها سوى مثل أو مثليين"⁴⁴. وذهب الراجحي إلى أبعد من ذلك عندما قال: "ينبغي أن نعلم أنَّ عددًا غير قليل من القضايا التي استقرت عليها المدرسة البصرية غير صحيح من الناحية اللغوية؛ لأنها فسرت في ضوء نظري عقلي معيَّن، وصحيح أنه غير محبوب، لكنه في الوقت نفسه لا يطابق الواقع اللغوي"⁴⁵، وقال أيضاً: "ظلَّ التعصُّب شديداً للبصرة منذ القديم، بل ظلَّ موجوداً عند عدَّة من الدارسين المعاصرين، وبخاصة في

³⁸ المصدر السابق، ببعض التصرف.

³⁹ ينظر: المصدر السابق، ص 378، و 380. وخليف؛ حياة الشعر في الكوفة، ص 268.

⁴⁰ أحمد مختار عمر؛ البحث اللغوي عند العرب، ط 6، عالم الكتب، القاهرة، 1988م، ص 139.

⁴¹ المصدر السابق. وينظر: عويضة (جميل)؛ كتاب الفراء وأثره في المدرسة الكوفية، ط

2008م، ص 149.

⁴² د. عويضة؛ كتاب الفراء وأثره في المدرسة الكوفية، ص 149.

⁴³ المصدر السابق، ص 148.

⁴⁴ أنيس (إبراهيم)؛ من أسرار اللغة، ط 6، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1878م، ص 21،

22، 25. وينظر: عويضة؛ كتاب الفراء وأثره في المدرسة الكوفية، ص 148.

⁴⁵ الراجحي؛ دروس في المذاهب النحوية، ص 11.

مواجهة النحو الكوفي⁴⁶، ثم ختم كلامه بقوله: "والحقُّ إنَّ الدراسة الموضوعيَّة لِكِلِّنا المدرستَين تُبيِّنُ أنَّ كثيرًا من المسائل التي ذهب إليها الكوفيون أقرب إلى الواقع اللغوي، وإلى المنهج النحوي الصحيح، من تلك التي ذهب إليها البصريون"⁴⁷. وذكر في موضع آخر مثالاً لمسألة من تلك المسائل، منها على سبيل المثال: مسألة تتعلق بجواز مجيء الفاعل جملة أو منعه؟

يقول في ذلك: "ولنضرب مثالاً واحداً على ابتعاد الكوفيين عن التأويل العقلي، واقترانهم من المنهج الوصفي السليم، وذلك في قضية وقوع الجملة فاعلاً، فقد كان البصريون قد قرَّروا أنَّ الفاعل لا يكون جملة. ولكنهم يصطدمون بنصوص عربية لا يرقى إليها الشك، تؤكد وقوع الجملة فاعلاً، فيضطرون إلى تأويل النص، والإسراف فيه"⁴⁸، ومُلخِّصُ هذه المسألة كما يلي: فاعل الفعل ﴿بَدَأَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسُجُنَّةً﴾⁴⁹، ذهب البصريون إلى أنَّ الفاعل هنا: ضمير مستتر تقديره: هو، يعود على المصدر المفهوم من الفعل، وتقدير الكلام: ثم بدا لهم بداء هو، وجملة ﴿ليسجننه﴾ جملة تفسيرية تفسر هذا الضمير المستتر العائد على البداء⁵⁰، قال الراجحي معلِّقاً على مذهب البصريين في هذه المسألة: "من الواضح أن هذا الضمير لم يظهر قط وأنَّ هذا البداء خيال. أمَّا الكوفيون فقد قالوا وفقاً لمذهبهم: جملة ﴿ليسجننه﴾ هي الفاعل، وليس من شك في أنَّ هذا هو الصحيح، ووقوع الجملة فاعلاً ليس أمراً غريباً في اللغات"⁵¹.

أقول: لاشكَّ أن النحو الكوفي قدَّم خدمة كبيرة للغة العربية قد لا تقل أهمية عما قدمه النحو البصري، وأنه ربما "لم يَلْقَ حتى الآن ما يستحقه من عناية الدارسين"⁵²، لكنني في الوقت ذاته أقول: إنَّ البصريين هم الذين كان لهم فضل السبق في نشأة درس النحو، والحفاظ على اللغة العربية من الضياع، وإنه لا يمكن أن ننسى ما قدَّموه من جهودات جبَّارة في تأصيل الأصول، وتقعيد القواعد، ووضع تلك الضوابط الحاسمة الصارمة التي حافظت على اللغة، ومنعت أسباب ضعفها وانهارها، وصانعتها من أيِّ اختراق يمكن أن يخترقها.

⁴⁶ المصدر السابق، ص 11، 12، وينظر: ص 90.

⁴⁷ الراجحي؛ دروس في المذاهب النحوية، ص 11، 12.

⁴⁸ المصدر السابق، ص 91.

⁴⁹ الآية 35 يوسف.

⁵⁰ ينظر: الراجحي؛ دروس في المذاهب النحوية، ص 11، 12.

⁵¹ المصدر السابق.

⁵² المصدر السابق، ص 90.

وأختم هذا المبحث بالقول: إذا كانت أوليات الدراسات النحوية قد تَمَّتْ في البصرة، فإنَّ أوليات الدراسات الصرفية قد تَمَّتْ في الكوفة⁵³، لكن تبقى البصرة صاحبة السبق في دراسة العربية⁵⁴، قال ابن النديم: "إنما قدَّمنا البصريين أولاً؛ لأنَّ علم العربية عنهم أخذ"⁵⁵، ويقول شوقي ضيف: "وعلى هذه الشاكلة شادت البصرة صرَّحَ النحو ورفعت أركانه، بينما كانت الكوفة مشغولةً عن ذلك كله، على الأقلَّ حتَّى منتصف القرن الثاني للهجرة، بقراءات الذكر الحكيم، ورواية الشعر والأخبار"⁵⁶.

مفهوم النحو عند القدماء:

يبدو أنَّ اللغويين الأوائل بالرغم من أنهم لم يفرّدوا لكلِّ من النحو والصرف تأليفاً خاصاً بكلِّ منهما، إلا أنهم كانوا على دراية تامة بأنَّ كلاهما علم مستقل، ولناخذ مثلاً على ذلك سيبويه فـ"قد جمع في مؤلفه المعروف بالكتاب مباحث النحو والصرف، وجعل لكلِّ مكاناً منه لا يشركه الآخر فيه أو يكاد. وبدأ بالنحو وثنَّى بالصرف، صنيعٌ من يراهما علّمين"⁵⁷. وقد كان أهم ما يُميِّز تلك المرحلة: هو ارتفاع البحث النحوي ونضجه، ثم ظهور الكتب الكاملة التي تعالج الدرس النحوي بمفهومه القديم، واتَّجاه البحث إلى التقصي، والاستقراء لكلام العرب، وكذلك أعمال الفكر، واستنباط القواعد⁵⁸.

المبحث الثاني: الأسباب أو العوامل التي أدَّت إلى نشوء الدرس النحوي العربي:

هناك عدَّة عوامل أدَّت إلى نشأة الدرس النحوي، لعلَّ أهمها ما يلي:

1) العامل الديني: يبدو أنَّ تَمَّتْ إجماع بين الباحثين أو يكاد على أنَّ الدراسات اللغوية نشأت لحفظ القرآن الكريم، وفهم الحضارة الجديدة التي أتت بها الدين الإسلامي، يقول أحد الباحثين: "أدرك العلماء في فترة سابقة من العصر الإسلامي أنه لا بدَّ من فهم لغة التنزيل فهماً جديداً لما فيها من أسرار لغوية جديدة"⁵⁹؛

⁵³ ينظر: السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)؛ المزهري في علوم اللغة وأنواعها، شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته وعلق حواشيه: محمد أحمد جاد المولى بك، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، 1987م، 2 / 400.

⁵⁴ ينظر: الجُمحي (محمد بن سلام)؛ طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه: أبو فهر محمود محمد شاكر، ط 2، مطبعة المدني، القاهرة، 1974م، ص 12.

⁵⁵ ابن النديم؛ الفهرست، ص 96.

⁵⁶ ضيف (شوقي)؛ المدارس النحوية، ط 7، دار المعارف، 1968م، ص 20.

⁵⁷ أحمد مختار عمر؛ البحث اللغوي عند العرب، ص 123.

⁵⁸ ينظر: المصدر السابق، ص 126، 127.

⁵⁹ السامرائي (إبراهيم)؛ التطور اللغوي التاريخي، ط 3، دار الأندلس، بيروت، 1983م، ص 49.

فاشتعلت الدراسات اللغوية في البصرة والكوفة، و"سار نحاة البصرة والكوفة جنباً إلى جنب، وتنافسوا في البحث والإنتاج، وتتابع من كلا البلدين نحاة أعلام⁶⁰، كالخليل بن أحمد، وسيبويه، والكسائي، والفراء، وغيرهم. إنَّ القرآنَ عربيٌّ ولا يتأتَّى فهمه بشكل صحيح إلا بفهم أسرار اللغة العربية، قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾⁶¹.

نشأ درس النحو -بالمفهوم القديم- لفهم القرآن الكريم، واستنطاق نصوصه، وفهم أحكام الشريعة الإسلامية. كذلك فإنَّ من يتتبع أسباب الاختلاف في أحكام الفروع الفقهية يجد كثيراً منها يرجع إلى اللغة العربية بمختلف فروعها، وقد أشار إلى هذا جمع غير من العلماء ومنهم الزمخشري عندما قال: "لا يجدون علماً من العلوم الإسلامية فقهياً وكلامياً وعلمي تفسيرها وأخبارها إلا وافقارهُ إلى العربية بَيِّنٌ لا يُدْفَعُ، ومكشوف لا يتقنَّ. ويرون الكلام في معظم أبواب أصول الفقه ومسائلها مبنياً على علم الإعراب، والتفاسير مشحونة بالروايات عن سيبويه والأخفش والكسائي والفراء وغيرهم من النحويين البصريين والكوفيين، والاستظهار في مأخذ النصوص بأقوالهم، والتثبت بأهداب فسره وتأويلهم"⁶². كذلك يقول الشاطبي أيضاً في هذا المعنى: "الشريعة عربية، وإذا كانت عربية، فلا يفهمها حقَّ الفهم إلا من فهم اللغة العربية حقَّ الفهم؛ لأنهما سيَّان في النمط، ما عدا وجوه الإعجاز"⁶³، ويستمر الشاطبي في توضيح حقيقة أنَّ فهم الشريعة يكون على قَدْر فهم اللغة، فيقول: "إذا فرضنا مبتدئاً في فهم العربية، فهو مبتدئ في فهم الشريعة، أو متوسطاً، فهو متوسط في فهم الشريعة، والمتوسط لم يبلغ درجة النهائية، فإن انتهى إلى درجة الغاية في العربية، كان كذلك في الشريعة، فكان فهمه فيها حجة، كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجة، فمن لم يبلغ شأوهم، فقد نقصه من فهم الشريعة بمقدار التقصير عنهم، وكل من قصر فهمه لم يعد حجة، ولا كان قوله فيها مقبولاً"⁶⁴.

⁶⁰ د. أحمد مختار عمر؛ البحث اللغوي عند العرب، ص126، 127.

⁶¹ الآية 2 يوسف.

⁶² الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر)؛ المفصل في صنعة الإعراب، قدم له وبوبه: علي بو ملح، [د.ت.]، ص18.

⁶³ الشاطبي (أبو إسحق إبراهيم بن موسى)؛ الموافقات في أصول الشريعة، عنى بضبطه وترقيمه ووضع تراجمه: محمد عبدالله دراز، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، [د.ت.]، 4، 115.

⁶⁴ المصدر السابق، 115.

كذلك ابن تيمية نجده يُشجّع على حثّ النّشء على تعلّم العربية وفهمها؛ لأنها شعار الإسلام والوسيلة لفهم الدين، يقول في ذلك: "وإنما الطريق الحسن اعتياد الخطاب بالعربية، حتى يتلقنّها الصغار في الدور والمكاتب فيظهر شعار الإسلام وأهله، ويكون ذلك أسهل على أهل الإسلام في فقه معاني الكتاب والسنة وكلام السلف"⁶⁵، ويضيف قائلاً: "واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيّناً، ويؤثر أيضاً في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق"⁶⁶، ثمّ يذكر ابن تيمية مُقدِّمةً يُرتبُ عليها أنّ تعلّم العربية وفهمها واجب شرعيّ، يقول: "إنّ نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفة فرض واجب، فإنّ فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. ثمّ منها ما هو واجب على الأعيان، ومنها ما هو واجب على الكفاية"⁶⁷ واستدلّ على صحّة كلامه بحديثين، فقال: "وهذا معنى ما رواه أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا عيسى بن يونس، عن ثور عن عمر بن زيد، قال: كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أما بعد: فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية وأعرّبوا القرآن، فإنه عربي. وفي حديث آخر عن عمر رضي الله عنه أنه قال: تعلموا العربية فإنها من دينكم، وتعلموا الفرائض فإنها من دينكم"⁶⁸ ثمّ علّق على ما سبق بقوله: "وهذا الذي أمر به عمر رضي الله عنه من فقه العربية وفقه الشريعة، يجمع ما يحتاج إليه؛ لأن الدين فيه أقوال وأعمال، وفقه العربية هو الطريق إلى فقه أقواله، وفقه السنة هو فقه أعماله"⁶⁹، ونلاحظ من خلال ما سبق تفضّل عمر رضي الله عنه إلى أهمية اللغة العربية وإلى ضرورة التفقه فيها للوصول إلى حفظ القرآن وفهم معانيه بشكل صحيح. بل قد لا نكون مبالغين إذا قلنا: إنّ إرهاصات نشأة دراسة العربية قد بدأت منذ عهد نبيّنا صلى الله عليه وسلم؛ فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً قرأ فلحن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أرشدوا أخاكم"⁷⁰ رواه الحاكم، وقال عنه: صحيح الإسناد، كذلك قال الذهبي: صحيح.

⁶⁵ ابن تيمية؛ اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، تح: محمد حامد الفقي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، [د ت]، ص 206.

⁶⁶ المصدر السابق.

⁶⁷ ابن تيمية؛ اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، ص 206.

⁶⁸ المصدر السابق.

⁶⁹ المصدر السابق.

⁷⁰ الحاكم (أبو عبد الله محمد بن عبد الله)؛ المستدرک علی الصحیحین، تحقیق: حمدي الدمرداش، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 2006م، 4 / 1366، رقم (3643). وحسام الدين الهندي (علاء الدين المنقي)؛ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ضبطه وفسر غريبه: بكري حياني،

فهذا تنبيه صريح من النبي صلى الله عليه وسلم للأمة من خطر اللحن على القرآن الكريم، وهذا يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدرك أهمية الإعراب في لغة القرآن الكريم، وأن ضياع الإعراب وانتشار اللحن معناه: ضياع الوصول إلى المعاني السليمة، وبالتالي ضياع لغة القرآن، أي: ضياع الدين كله؛ ولذلك تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع هذه الظاهرة منذ بدايتها بشدة وحسم، يدلنا على ذلك استخدامه صلى الله عليه وسلم فعل الأمر وهو قوله: (أرشدوا)، والأمر - كما هو معروف - يفيد معنى الجدية والحسم والحزم. كذلك فمن المعلوم أن الرشد عكس الضلال ﴿فَمَآذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾⁷¹، فكأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: إن اللحن الضلال، وليس بعد الضلال شيء. إنها قمة البلاغة، فقد عبر صلى الله عليه وسلم عن كل تلك المعاني بقوله: (أرشدوا).

وقد فهم الصحابة ذلك كله وطبقوه تطبيقاً عملياً، فقد ورد أنهم كانوا يعدون اللحن من الكبائر، كما ورد أيضاً أن بعضهم كان يضرب ولده على اللحن⁷². كذلك ف"لقد كان اللحن في القرآن الكريم داعياً أولي أمر المسلمين إلى الاهتمام بالقرآن الكريم، ومن ثم إقامة قواعد تضبط النطق، وهو ما سمي علم النحو بعد ذلك. وهذا يدل على تقطن المسلمين في ذلك الوقت إلى اختلاف المعنى باختلاف المعنى النحوي الذي يقتضيه النطق"⁷³، وكم تنكر كتب النحو والتفسير والفقه والحديث "ما توقّف بيان المعنى على الحكم الإعرابي وموقع اللفظ في الجملة بل توقفت بعض الأحكام الفقهية والتشريعية على توجيه الحكم النحوي"⁷⁴، حيث توقفت فتوى فقهاء التشريع "على تحريّ الحكم النحوي، حيث يختلف الحكم الشرعي باختلافه"⁷⁵، ومن ذلك مثلاً ما جاء في كتاب المبسوط في مذهب أبي حنيفة من أن الكسائي سئل عن الحكم الشرعي في مسألة تتعلق بالطلاق في قول القائل:

صححه ووضع فهرسه ومفتاحه: الصفة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1989م، 1 / 611، رقم (2809).

⁷¹ الآية 32 يونس.

⁷² ينظر: ابن عبد البر؛ جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، صححه وراجع أصوله: عبد الرحمن محمد عثمان، ط 2، المكتبة السلفية، [د.ت]، 2 / 206.

⁷³ العُشبي (بشيرة علي فرج)؛ أثر المعنى النحوي في تفسير القرآن الكريم بالرأي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ص 161. إلى هنا

⁷⁴ هلال (محمد محمود)؛ التقعيد النحوي بين اللفظ والمعنى، مجلة كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية، منشورات جامعة قاريونس، العدد 2، 1975م، ص 89، 90. وينظر: ابن يعيش (موفق الدين يعيش)؛ شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، مكتبة المتنبي، القاهرة، [د.ت]، 1 / 12.

⁷⁵ هلال (محمد محمود)؛ التقعيد النحوي بين اللفظ والمعنى، مجلة كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية، منشورات جامعة قاريونس، العدد 2، 1975م، ص 89، 90.

فإن تَرْفُوي يَا هُنْدُ فالرَّفُوقُ أَيْمَنُ * * وَإِن تَخْرُقي يَا هُنْدُ فالخُرُوقُ أَشَامُ
فَأنتِ طَلَّاقٌ وَالطَّلَّاقُ عَزِيمَةٌ * * ثَلَاثٌ وَمَنْ يَخْرُوقُ أَعَى وَأَظْلَمُ⁷⁶

وكان السؤال هو: ماذا يلزم هذا القائل إذا رفع الثلاث وإذا نصبها؟⁷⁷ فأجاب الكسائي بأنه إذا رفع (ثلاث) فيلزمه طَلَّقة واحدة؛ لأنه قال: أنت طلاق، ثم بعد ذلك أخبر أن الطلاق التام: ثلاث، أمّا إذا نصب (ثلاث) فإنه يكون قد طَلَّقها ثلاثاً؛ لأنَّ معناها أنت طلاق ثلاثاً، وما بينهما جملة اعتراضية⁷⁸. فهذه مسألة من إحدى أخطر المسائل الشرعية والاجتماعية ألا وهي مسألة وقوع الطلاق البائن أو الرجعي وما يترتب على الحُكْمَيْنِ مِنْ تَبَعَاتٍ وقضايا، وهذا فقيه من كبار الفقهاء يُحيلُ هذه القضية الخطيرة إلى المحكمة النحوية؛ ليحكم فيها القاضي النحوي. إنَّ مثل هذا وأكثر هو ما جعل السلف الأول يتفطن إلى أهميّة الإعراب، لذلك استمر حرص الخلفاء والصحابة في البحث عن الكيفية التي يحفظون بها لغة الشريعة، فنتج عن ذلك ابتكار أسباب الحفاظ على سلامة اللغة، وأخذت تنمو شيئاً فشيئاً إلى أن اتضحت بداية الطريق السليم في عهد علي رضي الله عنه، وبإشارة منه، أو في عهده عن طريق أبي الأسود الدؤلي، حسب اختلاف الروايات في ذلك⁷⁹، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

⁷⁶ البيتان من الطويل، وهما بلا نسبة عند: ابن يعيش؛ شرح المفصل، 1 / 12. وابن هشام (أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف الأنصاري)؛ مغني اللبيب عن كتب الأعراب، حققه وفصله وضبط غرائبه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، [د.ت]، 1 / 53. والسيوطي (جلال الدين بن عبد الرحمن)؛ شرح شواهد المغني، تصحيح وتعليق: محمد محمود ابن التلاميذ الشنقيطي، لجنة التراث العربي، [د.ت]، 1 / 168. والبغدادي (عبدالقادر بن عمر)؛ خزانة الأدب ولبّ أبواب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، ط 3، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1989م، 3 / 459.

⁷⁷ وتجدر الإشارة هنا إلى أن السائل هو الخليفة الرشيد وأنه وجّه سؤاله إلى الفقيه أبي يوسف تلميذ الإمام أبي حنيفة، فقال أبو يوسف: هذه مسألة نحوية فقهية ولا آمن الخطأ إن قلت فيها برأيي، فذهبت إلى الكسائي وهو في فراشه فسألته، فأجاب الكسائي بما أثبتناه. ينظر: هلال (د. محمد محمود)؛ التقعيد النحوي بين اللفظ والمعنى، مجلة كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية، منشورات جامعة قاريونس، العدد 2، 1975م، ص 89، 90.

⁷⁸ السَّرْحَسِي (شمس الدين)؛ كتاب المبسوط، ط 2، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، [د.ت]، 6 / 77. وينظر: هلال (محمد محمود)؛ التقعيد النحوي بين اللفظ والمعنى، مجلة كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية، منشورات جامعة قاريونس، العدد 2، 1975م، ص 89، 90.

⁷⁹ ينظر: ابن النديم؛ الفهرست، 59، 60. وابن الأنباري؛ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص 14. والقفطي؛ إنباه الرواة، 1 / 4. والأزهري؛ شرح التصريح على التوضيح، 1 / 4.

إنه مما لا شكَّ فيه أنَّ الصحابة والتابعين وعلى رأسهم ولادة الأمر، قد أحسَّوا بالحاجة الملحة إلى هذا العلم لحفظ لغة القرآن والدين، فأعملوا عقولهم وتمكَّنوا من وضع حجر الأساس الذي قام عليه التفسير العقلي النحوي فيما بعد، واستخدموا القياس في أمور استجدت، وقاموا بتحديد أصول كلمات القرآن، وأدركوا أنَّ القرآن الكريم استخدم أساليب العرب في الكلام، وفتوا الأنظار إلى ضرورة الاستعانة بالشعر في تفسير معاني القرآن، وعدَّوا كلام العرب شعراً ونثراً مصدراً أساسياً في بيان وتفسير معاني القرآن؛ لأنهم قد علموا أنَّ المفسر إذا أراد الوصول إلى فهم المعاني النحوية، وإلى فهم المعاني التي نُظِم النص من أجلها، فلا بدَّ أن يكون مدرِّكاً للعلاقات السياقية، وعارفاً بأسرار تراكيب اللغة، ومطلِّعاً على الفروق اللغوية في النص⁸⁰.

(2) العامل القومي: يقول الزمخشري: "العلل الذين يُعْضُونَ من العربية ويضعون من مقدارها، ويُريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها، حيث لم يجعل خَيْرَةً رسله وخيرَ كتبه في عَجَم خلقه ولكن في عربه، لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج، وزَيْعاً عن سواء المنهج"⁸¹، لما جاء الإسلام وفتح العرب المسلمون الأمصار، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وأصبحت للعرب السيادة في السياسة والثقافة والحضارة على امبراطوريات كانت قائمة، ونتيجة للتداخل بين العرب والعجم، أصبح تأثير لغات هؤلاء الأعاجم في اللغة العربية بيِّنً وواضح للعيان، وكان من أكبر مظاهره: تَفْشِي اللحن. كل هذا قد وُلِد إحساسا عند العرب بالخوف على لغتهم العربية؛ لأن ضياع لغتهم سيؤدي إلى ضياع ذاتهم العربية، قال ابن تيمية: "واللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميزون"⁸²، وإدراكهم لذلك كان مما دفعهم إلى البحث عن الوسائل التي تحفظ لغتهم من الضياع؛ لأنهم بمحافظتهم عليها يحفظون ذاتهم وقوميتهم العربية، فبدأت الابتكارات وتبني تقنيات وآليات جديدة تساعد على حفظ ذاتهم العربية، وصار الإعراب (النحو) خطاباً يميز العربي عن غير العربي⁸³. يقول العقاد: "الحملة على لغتنا حملة على كل شيء يعيننا وعلى كل تقليد من تقاليدنا الاجتماعية والدينية، وعلى اللسان والفكر والضمير في ضربة واحدة؛ لأن زوال اللغة في أكثر الأمم يُبقيها بجميع مقوماتها

⁸⁰ ينظر: العُشَيْبِيُّ؛ أثر المعنى النحوي في تفسير القرآن الكريم، ص 159 وما بعدها.

⁸¹ الزمخشري؛ المفصل في صنعة الإعراب، ص 18.

⁸² ابن تيمية؛ اقتضاء الصراط المستقيم، ص 203.

⁸³ ينظر بعض هذا عند: ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)؛ مقدمة ابن خلدون، دار الجيل، بيروت-لبنان، [د.ت]، ص 464. وعثمان (عبد الباسط)؛ نقد الحضور اللامعرفي في الخطاب النحوي، مجلة فضاءات للفكر والثقافة والنقد، دار الأصاله والمعاصرة، طرابلس-ليبيا، العدد 35، 2007م، ص 32.

غير ألفاظها، ولكن زوال اللغة العربية لا يُبقي للعربي أو المسلم قواماً يميزه عن سائر الأقوام، ولا يعصمه أن يذوب في غمار الأمم، فلا تبقى له باقية من بيان ولا عرف ولا معرفة ولا إيمان⁸⁴؛ لأنَّ لغتنا العربية "هوية، ومقوم من مقومات الوجود"⁸⁵، ومن يقرأ التاريخ يدرك أنَّه ما من شعب من الشعوب سجَّل نهضة علمية بغير لغته الوطنية، ولهذا فإن لغتنا العربية من أهم قضايا الأمن القومي⁸⁶.

(3) العامل الثقافي وشؤون الحياة اليومية: للعامل الثقافي دور بارز وعامل قوي ساعد على نشأة الدراسات العربية، يقول الزمخشري: "وبهذا اللسان مناقلُهم في العلم ومحاوَرُهم، وتدريسهم ومناظرُهم. وبه تقطُرُ في القراطيسِ أقلامُهم. وبه تَسْطُرُ الصكوكَ والسجلاتِ حكامُهم. فهم ملتبسون بالعربية أيَّهً سلَكوا غير منفكين منها أينما وجَّهوا كلُّ عليها حيثما سبَّروا"⁸⁷، ويقول أحد الباحثين في هذا المعنى: "غير أنَّ للخطاب النحوي حسب زعمنا مقاصد ثقافية وأيديولوجية متوارية خلف ظاهره، تهدف للمحافظة على الذات العربية التي كانت في طور تأسيس مشروعها الحضاري، من خلال وضع حد فاصل بينها وبين الذوات الأخرى، الذي يبرز من خلال اعتمادها أهل الوبر المرجعية الأساسية لخطاب التدوين"⁸⁸.

لقد تنبَّهت الثقافة العربية -أسوة بالثقافات الأخرى- إلى اعتماد آلية الكتابة؛ للمحافظة على نتائجها، وتراثها الثقافي، بدلاً من اعتمادها في ذلك على الذاكرة والخطاب الشفهي، ومما ساعد اللغة العربية على فرض سيادتها على الرأسمال الثقافي الإسلامي -الذي كان في طور التكوين والتشكيل- ما يلي:

- سطوة اللغة العربية على الحضارة العربية الإسلامية.
- سيادة الذات العربية على الخطابين: السياسي والديني.
- خوف العرب من تداخل الثقافات الوافدة مع الثقافة العربية، خاصة وأنَّ الثقافات الوافدة كان لديها إرث وممارسة ثقافية وتفكيرية ناضجة⁸⁹.

⁸⁴ العقاد نقلاً عن: الماي (عبد الله)؛ العربية بين الفصح والعامي، مجلة فضاءات، العدد 43 - 44، 2008م، ص 67.

⁸⁵ الماي (عبد الله)؛ العربية بين الفصح والعامي، مجلة فضاءات، العدد 43 - 44، 2008م، ص 67.

⁸⁶ ينظر: مؤسسة الفكر العربي تستحث الأمة على النهضة بلغتنا العربية، مجلة العربي، العدد 650، يناير 2013م، ص 194.

⁸⁷ الزمخشري؛ المفصل في صنعة الإعراب، ص 18.

⁸⁸ عثمان (عبد الباسط)؛ نقد الحضور اللامعري في الخطاب النحوي، مجلة فضاءات للفكر والثقافة والنقد، دار الأصالة والمعاصرة، طرابلس، العدد 35، 2007م، ص 33.

⁸⁹ ينظر: عثمان (عبد الباسط)؛ نقد الحضور اللامعري في الخطاب النحوي، مجلة فضاءات للفكر والثقافة والنقد، دار الأصالة والمعاصرة، طرابلس، العدد 35، 2007م، ص 35، 36.

الخاتمة:

- لعلنا من خلال ما سبق نستطيع أن نفرّر ما يلي:
- بزول القرآن برزت أهمية العربية في فهم القرآن الكريم، وأصبحت وسيلة من وسائل العبادة والتشريع، وسبيلاً إلى المعارف الإنسانية: العلمية والثقافية. ومظهراً من مظاهر الحضارة، والمدنية.
 - نظراً لاختلاط العرب بالأعاجم وتداخل اللغات وامتزاج الثقافات والحضارات؛ تعرّضت اللغة العربية إلى ظاهرة اللحن، وكاد أن يفتك بها لولا أنّ الله قيّض لها عباقرة أعلاماً من أبنائها البررة نظروا إليها من مختلف الزوايا، فكانت تلك النظرات هي بدايات نشأة درس النحوي في البصرة وذلك منذ عهد الصحابة والتابعين، في عهد علي رضي الله عنه، وبإشارة منه، أو في عهده عن طريق أبي الأسود الدؤلي. ثم لحقت الكوفة بالبصرة في هذا الميدان.
 - اتصل النحو الكوفي بالنحو البصري اتصالاً قوياً، واستفاد منه كثيراً، ثم كان لهما الفضل في تطوير النحو.
 - شهد درس النحوي تطوراً عظيماً في مسيرته، وكان من أهم أسباب تطوير النحو وازدهاره هو ذلك التنافس المحمود الذي وقع بين المدرستين: البصرة والكوفة.
 - وقع بعض الاختلاف بين المدرستين في المسلك، الأمر الذي نتج عنه اختلافهم في الأصول والمرجعيات وما يترتب على ذلك.
 - هناك عدّة عوامل أدّت إلى نشوء درس النحوي، لعلّ أهمها:
 - العامل الديني: حيث تفضّل المسلمون منذ عهد النبوة إلى أهمية اللغة في بيان المعنى وتوضيحه، وأحسّوا بالحاجة الملحة إلى نشوء الدراسات اللغوية لحفظ لغة القرآن والدين.
 - العامل القومي: بعد دخول الناس من مختلف الثقافات والحضارات إلى الإسلام، أصبح تأثير لغاتهم في اللغة العربية بيّناً وواضحاً للعيان، وكان من أكبر مظاهره: تفسّي اللحن، فتولّد إحساس عند العرب بالخوف على لغتهم العربية؛ لأن ضياعها سيؤدي إلى ضياع ذاتهم العربية، وأدركوا أنهم بمحافظتهم على لغتهم يحفظون ذاتهم وقوميتهم العربية.
 - العامل الثقافي وشؤون الحياة اليومية: تنبّهت الثقافة العربية إلى اعتماد آلية الكتابة؛ للمحافظة على نتائجها، وتراثها الثقافي، بدلاً من اعتمادها في ذلك على الذاكرة والخطاب الشفهي.



المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- الحديث الشريف.
- ابن الأنباري؛ نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، [د.ت].
- ابن تيميّة؛ اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، تح: محمد حامد الفقي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، [د.ت].
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)؛ مقدمة ابن خلدون، دار الجيل، بيروت. [د.ت].
- ابن عبد البر؛ جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، صححه وراجع أصوله: عبد الرحمن محمد عثمان، ط 2، المكتبة السلفية، [د.ت].
- ابن النديم؛ الفهرست، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، [د.ت].
- ابن هشام (أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف الأنصاري)؛ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، حققه وفصله وضبط غرائب: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، [د.ت].
- ابن يعيش (موفق الدين يعيش)؛ شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت [د.ت].
- أثر المعنى النحوي في تفسير القرآن الكريم، بشيرة العشيبى، منشورات جامعة قارونس، بنغازي.
- أحمد مختار عمر؛ البحث اللغوي عند العرب، ط 6، عالم الكتب، القاهرة، 1988م.
- الأزهرى (خالد بن عبد الله)؛ شرح التصريح على التوضيح، دار إحياء الكتب العربية.
- أمين (أحمد)؛ ضحى الإسلام، ط 8، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1974م.
- أنيس (إبراهيم)؛ من أسرار اللغة، ط 6، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1878م.
- البغدادي (عبد القادر بن عمر)؛ خزانة الأدب ولُبّ أبواب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، ط 3، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1989م.
- الجُمحيّ (محمد بن سلّام)؛ طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه: أبو فهر محمود محمد شاكر، ط 2، مطبعة المدني، القاهرة، 1974م.
- الحاكم (أبو عبد الله محمد بن عبد الله)؛ المستدرک على الصحيحين، تحقيق: حمدي الدمرداش، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، 2006م.
- حسام الدين الهندي (علاء الدين المتقي)؛ كنز العمال في سنن الأفعال والأفعال، ضبطه وفسر غريبه: بكرى حيّاني، صححه ووضع فهارسه ومفتاحه: الصفاة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1989م.

- حسّان (تمام)؛ اللغة بين المعيارية والوصفية، مطبعة دار النجاح الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1980م.
- الحلواني (محمود خير)؛ الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين وكتاب الإنصاف، دار القلم العربي بطلب، [د.ت].
- خليف (يوسف)؛ حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1968م.
- ديرة (المختار أحمد)؛ دراسة في النحو الكوفي من خلال معاني القرآن للفراء، ط1، دار قنتيبة، بيروت، 1991م.
- الراجحي (عبد)؛ دروس في المذاهب النحوية، ط2، دار النهضة، بيروت، 1988م.
- رفيدة (إبراهيم عبد الله)؛ النحو وكتب التفسير، ط3، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، 1990م.
- الزركلي (خير الدين)؛ الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط3، بيروت، 1969م.
- الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر)؛ المفصل في صناعة الإعراب، قدم له وبوبه: علي بو ملحم، [د.ت].
- السامرائي (إبراهيم)؛ التطور اللغوي التاريخي، ط3، دار الأندلس، بيروت، 1983م.
- السرخسي (شمس الدين)؛ كتاب المبسوط، ط2، دار المعرفة، بيروت، [د.ت].
- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)؛ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، [د.ت].
- السيوطي (جلال الدين بن عبد الرحمن)؛ شرح شواهد المغني، تصحيح وتعليق: محمد محمود ابن التلاميذ الشنقيطي، لجنة التراث العربي، [د.ت].
- السيوطي (جلال الدين عبدالرحمن)؛ كتاب الاقتراح في علم أصول النحو، قدم له وضبطه وصححه وشرحه وعلّق حواشيه وفهرسه: أحمد سليم الحمصي، ومحمد أحمد قاسم، ط1، 1988م.
- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)؛ المزهري في علوم اللغة وأنواعها، شرّحه وضبطه وصححه وعلّق حواشيه وفهرسه: محمد أحمد جاد المولى بك، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، 1987م.
- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)؛ همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح. عبدالسلام هارون، وعبد العال مكرم، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1987م.

- الشاطبي (أبو إسحق إبراهيم بن موسى)؛ الموافقات في أصول الشريعة، عنى بضبطه وترقيمه ووضع تراجمه: محمد عبدالله دراز، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، [د.ت].
- الشلقاني (عبد الحميد)؛ مصادر اللغة، ط 1، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، 1977م.
- الصَّفدي (صلاح الدين خليل بن ابيكك)؛ الوافي بالوفيات، اعتناء: س. ديدرينغ، ط 2، دار النشر فرانز شتايز، فيسبادن، 1981م.
- ضيف (شوقي)؛ المدارس النحوية، ط 7، دار المعارف، 1968م.
- الطنطاوي (محمد)؛ نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، تع: عبد العظيم الشناوي، ومحمد الكردي، ط 1، 1968م.
- عثمان (عبد الباسط)؛ نقد الحضور اللامعرفي في الخطاب النحوي، مجلة فضاءات للفكر والثقافة والنقد، دار الأصالة والمعاصرة، طرابلس، العدد 35، 2007م.
- العُشبي (بشيرة علي فرج)؛ أثر المعنى النحوي في تفسير القرآن الكريم بالرأي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، [د.ت].
- عَطَّار (أحمد عبد الغفور)؛ الصحاح ومدارس المعجمات العربية، عَطَّار، ط 4، مكة المكرمة، 1990م.
- عويضة (جميل)؛ كتاب الفراء وأثره في المدرسة الكوفية، 2008م.
- القفطي (أبو الحسن علي بن يوسف)؛ إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 1، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1950م.
- مؤسسة الفكر العربي تستحث الأمة على النهضة بلغتنا العربية، مجلة العربي، العدد 650، يناير 2013م.
- الماي (عبد الله)؛ العربية بين الفصح والعامي، مجلة فضاءات، العدد 43-44، 2008م.
- المخزومي (مهدي)؛ مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ط 3، دار الرائد العربي، بيروت، 1986م.
- مكرم (عبدالعال)؛ القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، دار المعارف، 1968م.
- هلال (محمد محمود)؛ التعميد النحوي بين اللفظ والمعنى، مجلة كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية، منشورات جامعة قاريونس، العدد 2، 1975م.
- الهيتمي (عبد القادر)؛ خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري، ط 2، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1993م.